الباب الثاني

تلميذ المدينة

الباب الثاني

تلميذ المدينة

"ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة"

(حديث شريف)

مالك بن أنس غرس من غراس المدينة، تلمذ فيها لأعظم الأساتذة، وإليه انتهى فقه فقهائها السبعة، الذين بارحوا الحياة في جيل سبق، وهم بدورهم تلاميذ للصحابة الفقهاء، نقلوا علمهم إلى شيوخ مالك الذين أدبوه فأحسنوا تأديبه. فتأتي إليه الأمر كله، إذ تسلم منهم مفتاح أدب الدين وعلمه، وهو اتباع الأمر الأول، والاتباع ملاك فقه مالك.

والنشأة أو التلمذة، والمعلمون أو المدرسة، فصلان تاليان.

الفصل الأول

التلميذ

"ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة"

(حديث شريف)

نحن الآن في سنة ٩٣ للهجرة.

ومالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر طفل ولد في "ذي المروة" على مبعدة من المدينة، لأب فقير، يعول نفسه وأهله من صناعة النبال. أمه العالية بنت شريك الأزدية، أما جده مالك بن أبي عامر فتابعي يروي عن عمر، وطلحة، وعائشة، وأبي هريرة، وعن عثمان، ويروي الطبري أنه كان يكتب المصاحف أيام عثمان.

ولم تعرف مثوبة بني أمية له على ما قيل من اشتراكه في دفن عثمان، وإن كان للرجل فضل في العلم، إذ كان عمر بن عبد العزيز يستشيره كما ذكر ذلك. مالك الحفيد.

والتاريخ يحفظ من المعروفين في العصر أسماء آخرين شجعوا فتولوا دفن عثمان. حكيم بن حزام (ابن أخ أم المؤمنين خديجة) وجبير بن مطعم وأبا الجهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم. وفي بعض الروايات ابن الزبير وابن أبي بكر والمسور بن مخرمة.

وكان جد مالك شابا أيامئذ – في حين كان بعضهم – حكيم – قد تخطى المائة، إذ مات في سنة ٥٤ عن مائة وعشرين عاما.

وورث الحفيد من مواريث الجدود أجل ما تورثه الأصول للفروع من استعداد للعقل والبدن. الميل إلى العلم، وامتداد الأجل، وامتزجت المواريث، فقضى الحفيد في العلم حياة طويلة حقا حاولت أن تناهز التسعين، كما استطالت حياة جده من بعد دفن عثمان سنة ٣٥ حتى سنة ١١٢.

وكان أبو سهيل – عم مالك – واحدا من بنين أربعة يروون العلم عن أبيهم. ويروي مالك عن أبي سهيل في الموطأ، فأحيانا يروي أن أباه أخبره عنه وأحيانا يقول أخبرني عمي. وعمه على كل حال شيخ من شيوخ ابن شهاب الزهري أستاذ مالك، فنحن اليوم بإزاء فتى يتلقى العلم كابرا عن كابر.

يقول عمه عن مقدمهم إلى المدينة: نحن قوم من ذي أصبح، قدم جدنا المدينة فتزوج في التيميين فكان معهم، ونسب إليهم.

والمشهور أن مالكا بن أبي عامر جاء من اليمن، وقيل إن أبا عامر هو الذي قدم يشكو الوالي فلقى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فصار بينهما حلف أو ولاء. وعبد الرحمن هو ابن أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة، وبنو تيم قبيلة الصديق أبي بكر.

ذلك نسبه في الإسلام، أسرة عربية من اليمن – تنسب إلى أسرة عربية كبيرة في المدينة.

أما نسبه في الجاهلية. فهو "مالك بن... الأصبحي نسبة إلى "ذي أصبح" ويقال إن أصحاب هذه التسمية كانوا من ملوك اليمن.

وانتقل مالك إلى الوادي المبارك في "العقيق" على مشارف المدينة[٥] يعيش من عمله مع أخيه النضر، فكان يسمى في صباه "مالكا أخا النضر" لأن النضر كان يطلب الرزق في تجارة البز. وتعلم مالك من النضر أن يعيش من التجارة. فصار في حداثته بزازا، ثم ترك التجارة إلى العلم، وإن بقى يرتزق من مرابحة يسيرة لا تزيد على أربعمائة دينار، كان منها قوام عيشه.

* * *

(٥) يمتد وادي العقيق شمال غربي المدينة – عن ابن عباس: سمعت عمر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق يقول: "أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حجة".

وجهت مالكا أمه إلى العلم إذ وجدته تواقا إلى الغناء، وكان مسلاة السروات في المدينة وملهاة البلاط في دمشق، فبعثت به إلى حلقة ربيعة بن أبي عبد الرحمن. فروخ (١٣٦) الفارسي الأصل. وكان مولى للتيميين ولأسرة مالك ولاء أو حلف معهم. قالت له أمه: تعلم من أدبه قبل علمه.

وظاهر أن ذلك كان في بواكير الحداثة، فلقد رآه الناس في حلقة ربيعة وفي أذنه شنف لا يبقيه في أذنه الصبي.

وكان ربيعة إذا رآه مقبلا يقول جاء العاقل. ولقد سمى فقهاء العصر ربيعة ربيعة الرأي لاجتهاده بالرأي، فأخذ عنه مالك هذا الاتجاه من بدء حياته.

وكانت حلقة ربيعة تضم جماعات من المتفقهين، ومن ذوي الشأن، مثل أمير المدينة، وشيخ بني هاشم، الحسن بن زيد بن الحسن بن علي (١٦٨) والد السيدة نفيسة.

واشتهر أن ربيعة أكبر أساتذته، وإن لم يقل تأثره بغيره من الأساتذة عن تأثره بربيعة. ولعل السبب في ذلك منحاهما في إبداء الرأي أو أن حلقة ربيعة كانت آخر الحلق. في عهد التلمذة، يوم عقد لنفسه حلقة من قبل أن يبلغ العشرين.

ولم يكف مالك عن إطراء أستاذه شكلا وموضوعا فيقول عن ملبسه: "ما أدركت أحدا يلبس هذه الثياب الرقاق وإنما كانوا يلبسون الصفاق. إلا ربيعة فإنه كان يلبس مثل هذا، ويشير إلى قميصه". فهو قد بدأ بأن تلقى عليه أناقة اللباس. وكان مالك جميلا، فصار إلى جماله أنيقا. أما في موضوع فقهه فيقول بعد إذ مات ربيعة "ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة" ولا فقه إلا برأي ولا حلاوة إلا باجتهاد.

وكان ربيعة صاحب معضلات أهل المدينة في الفتيا – يكثر الكلام ويقول: الساكت بين النائم والأخرس.

ولما أحاط أبو حمزة الخارجي بالمدينة أوفده الوالي سفيرا بين سفرائه إلى أبي حمزة، وكان في السفراء علية أهل البيت وأهل المدينة لكن الكلمة في الوفد كانت لربيعة، حيث قدمه ليقولها عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي.

قال سوار بن عبد الله (١٥٧) ما رأيت أحدا أعلم من ربيعة، قيل ولا الحسن البصري؟ قال: ولا الحسن ولا ابن سيرين. وقال فيه القاسم بن محمد بن أبي بكر: "لو تمنيت أحدا تلده أمي لتمنيت ربيعة".

وما كان بالمدينة رجل أسخى بما في يديه لصديق أو غيره من ربيعة. لقد أنفق على إخوانه أربعين ألف درهم.

تلقى مالك على شيخه الكثير،وهو في حلقته أو بعد إذ صارت لمالك حلقة، مثل سوء رأيه في العراقيين، ومثل الانتصار للعلم في مواجهة الخليفة منذ دعا السفاح ربيعة يوليه القضاء في العراق. وكانت الدولة الجديدة بحاجة إلى علوم المدينة. فلبى ربيعة قائلا لمالك: "إن سمعت أني خدمتهم شيئا أو أفنيتهم فلا تعدني شيئا". وكان من الزهاد. ذهب حقا وعاد. رافضا ولاية القضاء وجائزة أجيزها قيمتها خمسة آلاف!.. وعاد يقول عن العراقيين: "رأيت قوما حلالنا حرامهم وحرامنا حلالهم. وتركت بها أكثر من أربعين ألفا يكيدون هذا الدين" ويروى أنه أضاف: "كأن النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم".

كان هناك المعتزلة وغلاة المرجئة والشيعة والخوارج والمتكلمون. فهؤلاء هم الذين عناهم. وكان ثمة القياسون من فقهاء العراق الذين جارتهم مدرسة أبي حنيفة. وكان أبو حنيفة نفسه هنالك يتوسط حلقة عظيمة تعمل عملها العظيم في الاجتهاد وإبداء الرأي. وربيعة نفسه صاحب رأي منذ الصبا. ناقش أيامذاك سعيد بن المسيب في مسألة مجادلا بالقياس. وجادله سعيد بالسنة.

فأم مالك توجه فتاها إلى أدبه والمدينة المنورة توجه الأنظار إلى رأيه... ولم لا يكون علما على الرأي والأدب، وهو مولى بني تيم رهط أبي بكر. وهم، رجالا ونساء، قمة قريش في الذوق والأدب. وقريش قمة العرب.

أما أستاذ مالك الثاني من موالي بني تيم فهو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (١٦٩) قارئ المدينة الكبير. وإمامها في دهره. ونافع قد قرأ على شيبة بن نصاح من موالي أم سلمة أم المؤمنين.

ومن مواليهم كذلك علقمة بن أبي علقمة بلال. وكان له مكتب بالمدينة يعلم النحو والعروض في المدينة وهو مولى أم المؤمنين عائشة. مات في أول خلافة المنصور.

وأما ذروة معلميه من بني تيم أنفسهم. فمحمد بن المنكدر (١٣٠) زعيم الفقهاء علما ونبلا ومالك يروي عنه في الموطأ. وهو حبة من حبات ذلك العقد النظيم من أهل العلم في بني تيم، يتصدر أخوين من فقهاء العصر: هما أبو بكر وعمر. والأسماء الثلاثة للإخوة الثلاثة أسماء الرسول وصاحبيه، وكأنها تعلن شعار الاتباع كلما جادت السماء برجل على بني تيم.

وكان لهم أيضا موال فقهاء متصدرون كيعقوب الماجشون، وابنه، وإلى يعقوب بن أبي سلمة ينسب ولده وبنو عمه فيقال بنو الماجشون[٦]. وكان فقيها وابنه يوسف وأخوه عبد الله وابنه عبد العزيز بن عبد الله (١٦٤) ويكنى أبا عبد الله كانوا كلهم فقهاء.

وسنرى عبد العزيز بن عبد الله من ضرباء مالك. أما ابنه عبد الملك (٢١٢) فسوف نراه تلميذا في حلقة مالك.

كان محمد بن المنكدر من معادن الصدق التي تزدان بها مشيخة العلم بالمدينة، وكان سيدا في القراء، عابدا زاهدا، يعد في طبقات الزهاد والعباد قال: "كابدت نفسي في ذلك أربعين سنة حتى استقامت". لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا بكى. يقول مالك: "كنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتي ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياما". فهو شارك في تعليم مالك العلم وأشياء من خصائص بني تيم. لعل أبرزها كان تهذيب تلميذه على هدى من سبقه من الأئمة من أهله الذين أفنوا أنفسهم ليحيا الناس وفي طليعتهم أبو بكر الصديق.

وكان الناس يسألون ابن المنكدر: أي الأعمال أفضل فيقول إدخال السرور على المؤمن.. ويسألونه: أي الدنيا أحب إليك فيقول: الإفضال على الإخوان.

وثمة علماء آخرون من بني تيم – من أنفسهم، كالقاسم بن محمد بن أبي بكر الذي يسميه عمر بن عبد العزيز أعيمش بني تيم. أو أمهاتهم منهم. كعبد الله بن الزبير وعروة، أمهما أسماء أخت محمد بن أبي بكر نقلوا علم المدينة كله إلى ناقليه: لمالك.

---

(٦) كلمة فارسية معناها أبيض الخد.

والصديق أبو بكر يقف كواسطة العقد في قمة التاريخ العلمي لمصادر مالك العلمية، باتباعه واجتهاده الرأي، وبأبنائه وبني تيم أنفسهم أو مواليهم.

* * *

أما القمة الأخرى، قمة عمر بن الخطاب فتستنتهي إلى مالك بطريق قاصد، وفقيه رفيع المقام في تاريخ الرواة عن الرسول عليه السلام هو نافع مولى عبد الله بن عمر. فيسلكه نافع في سلسلة الذهب. غذ يروي الشافعي (عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر).

خدم نافع عبد الله بن عمر ثلاثين عاما، ومات سنة ١١٧ وكان يروي عنه وعن عائشة، وأم سلمة وأبي هريرة، وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم المصريين السنن.

وكان يمتنع عن الفتيا في حياة سالم بن عبد الله بن عمر،وكان عبد الله بن عمر أشبه أولاد عمر بعمر، أو كما يروي زيد بن أسلم عن أبيه: ما ناقة أضلت فصيلها في فلاة من الأرض بأطلب لأثرها من ابن عمر لعمر بن الخطاب.

لزم مالك نافعا يستخرج ما عنده، يترصد دخوله وخروجه ليسأله، وأحبه نافع فكان يقعده معه ويحدثه.

ويتحايل مالك لينفرد بنافع، فيقوده إذ كف بصره إلى منزله بالبقيع بعيدا عن المدينة، ليستفيد من بعد الشقة، والوحدة. ولهذا روى عنه ثمانين حديثا في الموطأ.

وكان من وسائله للانفراد بالأساتذة أن يجعل في كمه ثمرات يناولها صبيان ابن هرمز ليقولوا إذا سئلوا عن الشيخ إنه مشغول فيخلو له وجهه.

ويتراءى ابن هرمز، عبد الله بن يزيد، مدة أطول في حياة مالك. إذ انقطع إليه سنوات في أول الحياة ثم صار يعاود مجلسه حتى مات الشيخ في سنة ١٤٨ – قال ابن هرمز يوما لجاريته من بالباب؟ فذكرت له مالكا قال: ادعيه فإنه عالم الناس... وكان عالم الناس قد اتخذ تبانا محشوا يتقي به برد حجر يجلس عليه بالباب، يجئ مبكرا فما يخرج من بيته حتى الليل، ويأمر ابن هرمز الجارية فتغلق الباب وترخي الستر، ويكلمه ابن هرمز في الدين والعلم والسير ويبكي حتى تخضل لحيته – ولسوف يخرج ابن هرمز مع محمد بن عبد الله النفس الزكية زعيم العلويين سنة ١٤٥ على بني العباس وظلمهم. ولعل أمر الأمة هو الذي أهمه وكان يبكي له.

أما ابن شهاب الزهري (١٢٤) فكان صديقا لعبد الملك بن مروان وابنه هشام، واستقضاه يزيد بن عبد الملك حينما ولي بعد عمر بن عبد العزيز. ثم أدب ولد هشام. فأطال المقام بالشام. وإذا عاد إلى المدينة يقول مالك: "كنا نزدحم على درج سلم بابه". ولا يعود مالك إلى داره من صلاة العيد بل يقصد إلى دار ابن شهاب يرجوه ليحدثه فيحدثه ويقول مالك زدني. فيجبذ اللوح من يده ويقول: حدث فيحدثه بالأحاديث التي ألقاها عليه. فيقول له: قم فأنت من أوعية العلم. حدث إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: قلت لأبي بم فاقكم الزهري؟ قال كان يأتي المجالس من صدورها، ولا يأتيها من خلفها، ولا يبقى في المجالس شابا إلا سأله ولا كهلا إلا سأله وقال: ما أرى أحدا بعد رسول الله ﷺ جمع ما جمع الزهري.

وللزهري مقام عظيم في عالم الرواية عن الرسول، وإنه لجليل الأثر في تنشئة مالك وفي تكوين فكره. فهو يروي عنه في الموطأ اثنين وثلاثين ومائة حديث. منها اثنان وتسعون مسندة والباقي منقطع. ولقد طلب عمر بن عبد العزيز إلى الزهري أن يدون الحديث وربما كان ذلك بداية تدوين الزهري. وكان الزهري في عصره على رأس المدونين للسنن، حتى ليقول الشافعي: "لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة" وكان حافظا من الدرجة الأولى، حفظ القرآن في ثمانين ليلة، وما استودع ذهنه شيئا إلا حفظه، وكان يملي مئات الأحاديث في المجلس الواحد!

ولما مات مالك وجدت عنده صناديق لم يحدث بها. منها أحاديث للزهري روى صالح بن سنان (١٣٩) مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز "كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم فاجتمعنا على أن نكتب السنن فكتبنا كل شئ سمعنا عن النبي ﷺ ثم قال: اكتب ما جاء عن الصحابة فقلت ليس بسنة قال: بل هو سنة. فكتب ولم أكتب – فأنجح وضيعت".

ومالك يقول: قدم ابن شهاب المدينة فأخذ بيد ربيعة ودخلا الديوان.. وخرج ابن شهاب وهو يقول: ما ظننت بالمدينة مثل ربيعة، وخرج ربيعة يقول: ما ظننت أحدا بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب.

وقال ابن شهاب ذات يوم: قال لي القاسم بن محمد: أراك تحرص على العلم. أفلا أدلك على وعائه؟ قلت بلى. قال عليك ببنت عبد الرحمن فإنها كانت في حجر عائشة. فوجدتها بحرا لا ينزف.. وعمرة بنت عبد الرحمن خالة أبي بكر بن حزم أحد المصادر الرئيسية لتعليم مالك.

ويظهر أثر ابن شهاب كذلك عندما نجده يلقى مسألة فيجيب ربيعة ويسكت مالك فيسأله ابن شهاب لم لا تجيب؟ ويقول مالك: لقد أجاب الأستاذ، أو نحو ذلك فيقول ابن شهاب، ما نفترق حتى تجيب. فيجيب بخلاف جواب ربيعة.

ويقول ابن شهاب: ارجعوا بنا إلى قول مالك.

فمالك كان في صدر شبابه صاحب رأي يخالف فيه ربيعة الرأي. ويرده الأدب الكريم عن معارضته في المجلس.

وكان الزهري عنوانا على السماحة والسخاء. وسيعجب به الشافعي لفرط سخائه ولقوة حفظه. ويزيد مالكا إعجابا أن يقول فيه عمر بن عبد العزيز: إنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه.

* * *

هكذا نرى أساتذة مالك كلهم مثل عظيم في الدين والعلم والخلق وبهذا وبالاتصال المباشر – نضج شخصه وعلمه، فإذا انضاف إليهم إمام كان إذا خطر صرفت الأبصار تلقاءه وإذا حضر رنت إليه الحدق. جعفر الصادق. ظهر لنا مبلغ ما سعد مالك بأساتذته، وكان جعفر يمت إلى بني تيم بأمه، وأمها، فهذا نسب علمي جديد لمالك إلى بني تيم. فالصادق يقول: ولدني أبو بكر مرتين، وبهذا ينتسب إليه من أكثر من وجه. أمه أم فروت بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. (أعيمش بني تيم) وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. وجعفر يروي عن محمد بن المنكدر، وعن خاله عبد الرحمن بن القاسم، وعن عروة بن الزبير، وعروة يروي عن عائشة. أما أبوه فالإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي... فجعفر يحوي كل علوم المدينة وعلوم أهل البيت. وكان بحر علوم في الفقه وفي العلوم الطبيعية معا. وهو أستاذ جابر بن حيان أول كيمائي في التاريخ، كما تبايعه أوروبا المعاصرة، وصاحب الطريقة العلمية العربية التي تلقتها أوروبا وادعتها لنفسها طريقة التجربة والاستخلاص.

وعلى الإمام جعفر تلقى أبو حنيفة. وفيه يقول: "ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد". وتلقى عليه مالك الفقه وأساليب السلوك. فجعفر قد لزم الحياد عندما خرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥ ولزم مالك الحياد كذلك. وجعفر لم يكن يرى الثورة، ومالك لم يكن يرى الخروج على الأئمة.

وجعفر رجل وئام تجتمع على فضله كل الأمة بما فيها المختصمون من الأمويين والعباسيين وسواهم، وكان يعلم الناس بطريقته وتقواه. رووا أن أبا مسلم الخراساني – القائد الذي أقام دولة بني العباس – أرسل إلى جعفر يراوده في أن تكون الدعوة له... فقرأ الرسالة ثم حرقها،

واكتفى في الرد عليها بأن أمر الرسول أن يبلغ أبا مسلم بما رأى،وسنرى مالك بن أنس سلما لكل رجل، من الأمويين إلى العباسيين إلى من عداهم.

وجعفر هو الذي يجمل الحياة إذ يجعل في كل نعمة فضيلة زكاة. ويجعل الفقه ضرورة للدنيا قال: "المعروف زكاة النعم، والشجاعة زكاة الجاه، والعلل زكاة الأبدان والعفو زكاة الظفر وما أديت زكاته فهو مأمون السلب" وقال: لا يستغنى أهل بلد عن ثلاثة يفزع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم: فقيه عالم ورع، وأمير مطاع، وطبيب ثقة فإن عدموا ذلك كانوا همجا. وهو ينبه الفقهاء ليبقوا على مكانتهم فيقول: "الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين".

يقول مالك: "كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي عليه الصلاة والسلام اخضر واصفر، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال – إما مصليا وإما صائما وإما يقرأ القرآن. وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على الطهارة. ولا يتكلم فيما لا يعنيه. وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله. وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي". وكم حاول مالك أن يكون مثله. يتغير لونه ويصفر إذ يذكر النبي فيتساءل جلساؤه فيقول لهم لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون. ويذكر لهم حال ابن المنكدر ثم يعقب بحال جعفر. أخرج له مالك في موطئه تسعة أحاديث، وقيل إنه أضافها بعد قيام دولة العباسيين إذ سألوه لماذا لم يرو عن علي وابن عباس وأنه قال: لم يكونا ببلدي. أي كانا بمكة والكوفة.

ولما عقد لنفسه حلقة كان جعفر يشير على المتفقهين بإتيانها. روى عنوان البصري أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه، فغاب الإمام عن المدينة فاختلف إلى مالك سنين، ثم عاد الصادق فعاد إليه عنوان فنصحه أن يجلس إلى مالك.

* * *

كان مالك سريع الحفظ كثير التدوين يقول عن نفسه: "لقد ذهب حفظ الناس. ما استودعت قلبي قط شيئا فنسيته" ويقول: "كتبت بيدي مائة ألف حديث" حدثه ابن شهاب أربعين حديثا ونيفا تمنها حديث السقيفة – وهو طويل – فحفظها ثم طلب إلى ابن شهاب أن يعيدها لأنه نسى النيف. فأبى ابن شهاب فأعادها مالك عليه من حفظه كما رواها.

قالوا أخذ مالك العلم عن تسعمائة شيخ فأكثر، منهم ثلثمائة من التابعين وستمائة من تابعي التابعين. وما يرفع الشأن أن يكونوا تسعمائة إذا كانت الأسماء التي ذكرناها قبل، أسماء البعض من أساتذته – وسنرى بعد من كان أساتذة هؤلاء.

وليست الدراسة عظيمة بكثرة عدد المدرسين، وإنما هي تعظم بعظمتهم. أو ملازمتهم، والفهم منهم، وربما تعلم الشافعي على مالك في عشر سنين أو تعلم أبو حنيفة على حماد بن إسماعيل، وحده، أضعاف ما تعلمه مالك على مئات ممن لقيهم.

على أن هؤلاء الأساتذة كانوا مرتبطين بمن سبقوهم ارتباطا لا نستطيع له تجزئة فهم حلقة الوصل الوثقى بين مالك وبين من سبقوهم في مدرسة المدينة العظيمة التي تجمع فقه المئين منها في سبعة أو عشرة أو بضعة عشر، مثلوهم كلهم أصدق تمثيل، فلما انتقل علم المدرسة كاملا إلى مالك، أمسى مالك تلميذا للمدرسة كلها. لا لأشياخه وحدهم – وإذا رأيناه يروي عن بضع مئات فالمئات أعضاء مدرسة تنقل عن مدرسة، وبهذا آل لمالك كل علم المدينة. وكفته المدرسة العظيمة بثرائها الأعظم فلم يرحل إلى سواها. ففيها طلبته من السنن أحاديث وآثارا. ومن الشيوخ عشرات ومئات. وعلى هذا تشكل منهاجه بأشكال المدينة وأشخاصها وعلمهم وعملهم، وأخذ نفسه من فاتحة الحياة بما يأخذ به الفقهاء جميعا فيها من عمل المدينة وعلمها.

* * *

قالوا جلس مالك للتدريس وهو ابن سبعة عشر عاما، ولا نستطيع بهذا أن نختم عهده في التلمذة، فالواقع أنه كان يعلم ويتعلم، وآية ذلك اختلافه إلى بعض أساتذته بعد أن عقد لنفسه حلقة، ولا يزيده التبكير بالجلوس مكانة وإنما يزينه الإقبال والإخلاص اللذان كانا ديدنه.

قالوا إن مسألة عرضت في حلقة ربيعة فتكلم فيها فراجعه مالك بقوله ما تقول يا أبا عثمان فقال ربيعة: "أقول. فلا تقول. وأقول إذ لا تقول وأقول فلا تفقه ما أقول" فانصرف مالك. حتى إذا كان الظهر جلس وحده فلما كان المغرب اجتمع إليه خمسون وأكثر.

وقالوا جلس وهو ابن أكثر من سبع عشرة سنة، لكن مسلما أنه قد عرفت له الإمامة وبالفقهاء الكبار حياة.

وسنرى بعد، من كتاب الليث بن سعد سببا فقهيا من أسباب خلاف مالك وربيعة أدى إلى تركه مجلس ربيعة.

على أنه لم يغلق وراء نفسه أبواب ربيعة، فربيعة كان شيخ مدرسة يبارك خطو تلاميذها، دعا الوالي مالكا إلى مجلسه، فتأخر حتى سأل ربيعة، فقال له احضر. قيل له: لو لم يقل لك احضر، أكنت تحضر؟ قال: كلا... ويعلو نجم مالك لدى الحكام. فيقال لربيعة: يف حظى بك مالك وأنت لم تحظ به؟ ويقول: أما علمتم أن مثقالا من دولة خير من حمل علم؟

ولا يتوقف النجم عن الصعود، فليس حظا، وإنما هو العلم، الذي سيجعله يقول فيما بعد: قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئني يستفتيني.

استفتاه زيد بن أسلم – وقد روى مالك عنه – ورجع إليه، بل اجتمع الناس يسألونه أن يحدثهم عن ربيعة وربيعة حاضر في المسجد، فكان يشير إليهم أن يتوجهوا إلى الشيوخ الوقور ربيعة.

وتمضي الأيام فيقول ابن لهيعة في مصر: قدم علينا محمد بن عبد الرحمن فقلت لهمن للرأي بعد ربيعة في الحجاز فقال الغلام الأصبحي... وهي مقولة معبرة عن آمال الفقهاء إذا قيلت بعد وفاته فلم يك مالك غلاما بل كان في الثالثة والأربعين يوم مات ربيعة.

الفصل الثاني

مدرسة المدينة

"والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون"

(حديث شريف)

اكتفينا قبل بالحديث عن سبعة من شيوخ مالك، لقوة تأثره بهم، ولأنه لا معدى عن الوقوف عند حد. ولقد تلقى هؤلاء، وسائر من تلقى عنهم مالك، عن أشياخ المدينة العظماء وفي طليعتهم الأئمة المعروفون بالفقهاء السبعة أو العشرة أو نحوها إذا انضاف إليهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أو سالم بن عبد الله وقبيصة بن ذؤيب وإبان بن عثمان.

يضاف إلى هذه الأنجم اللامعة تلميذهم أو زميلهم أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وقد مات سنة ١٢٠ عن أربعة وثمانين عاما. ولولديه تأثير ملحوظ في مالك. وكان عندهم الكثير من تراث المدينة، علما وعملا، ومنه كتاب الرسول في الديات إلى جده عمرو بن حزم وقد كان رسول الرسول إلى اليمن، ومالك يرويه في الموطأ، ولهذا نستفتح به الكلام في فقهاء العصر... ومحمد والد أبي بكر واحد من شهداء المدينة يوم وقعة الحرة. وأما أبو بكر فصار قاضيا لسليمان بن عبد الملك ووالياً لعمر بن عبد العزيز على المدينة.

يروي ابن وهب عن مالك: كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنة والفقه،ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عما مضى، وأن يعلموه بما عندهم. وكتب إلى أبي بكر بن حزم أن يجمع السنن ويكتب إليه، وتوفي عمر وقد كتب ابن حزم كتبا ولم يبعث بها إليه بعد. وكان على قضاء المدينة ووليها أميرا. فقال له يوما قائل: ما أدري كيف أصنع بهذا الاختلاف. قال: إذا وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك أنه الحق. وسترى هذه الكلمة التي نقلها مالك منهاجا يتبعه ويدافع عن اتباعه.

فأما فقهاء المدينة السبعة فسيصبح علمهم بذاته دعامة علوم الإسلام، منهم اثنان من الطبقة الأولى من التابعين. وأولهم سعيد بن المسيب (٩٣) تلميذ زيد بن ثابت وصهر أبي هريرة. وكان يقال (سعيد راوية عمر) ويقال (سعيد بن المسيب الجرئ) وهو يلقب بسيد التابعين. ضربه جابر بن الأسود والي ابن الزبير على المدينة ستين سوطا لأنه لم يبايع له. وضربه هشام بن إسماعيل المخزومي والي عبد الملك ستين سوطا لأنه لم يبايع للوليد[٧].

وسليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث – خالة عبد الله بن عباس. روى عن أم سلمة وابن عباس وأبي هريرة.

أما الخمسة الآخرون فيتصدرهم أستاذ عمر بن عبد العزيز عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الذي مات في سنة الفقهاء (٩٤) وكان شاعرا. فهو من هذيل. أبوه عبد الله بن عتبة، وعتبة أخو عبد الله بن مسعود. لقى عبيد الله كثيرين من الصحابة، وروى عن ابن عباس وأبي هريرة وعائشة.

وأما أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي القرشي (٩٤) فيدعى راهب قريش أبوه صحابي جليل وأخ لأبي جهل زعيم المشركين. تلقى العلم عن أبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة.

وخارجة بن زيد بن ثابت (١٠٠) وارث علم أبيه.

---

(٧) لم يبايع للوليد ولا أخيه سليمان بعد موت عبد العزيز بن مروان إذ قال لا أبايع للوليد وعبد الملك حي.

قال عنه عبد الله بن عمر: لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسر.

وكان سعيد يقول: لم أنظر إلى قفا رجل في الصلاة من خمسين سنة. للمحافظة على الصف الأول. وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة. وكان يرى الدنيا تكفي مؤونتها أربعمائة دينار – فاتجر في الزيت يعيش م نربحه ولا يمد يده لعطاء الخليفة. وقد اقتفى مالك أثر، في المرابحة بأربعمائة دينار،وهو مخزومي. من قبيلة أم سلمة أم المؤمنين، وخالد بن الوليد – أخوال عمر بن الخطاب وهو الذي رفض أن يزوج بنته من الوليد بن عبد الملك حينما خطبها الخليفة لولي عهده وزوجها تلميذا فقيرا من تلاميذه.

دعي إلى نيف وثلاثين ألفا يأخذها فقال: لا حاجة لي فيها أو لبني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم.

وقيل لم يكن أعلم بقضاء رسول الله وصاحبيه من سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار.

والقاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٦) وما كان أعلم بالسنة منه، بلغ بتقواه وصلاحه أن قال عمر بن عبد العزيز فيه: "لو كان لي من الأمر شئ لاستخلفت أعيمش بني تميم".

ضمته أم المؤمنين إليها بعد مقتل أبيه، بأيدي جند معاوية وعلمته – وكان أبوه ربي علي، وكان في معسكره يوم وقعة الجمل، فلما أعاد على عائشة إلى المدينة سيرها محفوفة بكوكبة من النساء في ملابس الرجال، وسير معها أخاها محمدا احتفالا بها، وكان من نساك قريش.

وسالم بن عبد الله بن عمر (١٠٦) ابن عم أم عاصم أم عمر بن عبد العزيز لكنه كذلك ابن خالة القاسم، فأماهما وأم زين العابدين بن الحسين من بنات يزدجرد كسرى الفرس. وقد آل إلى سالم علم أبيه.

وعروة بن الزبير (٩٤) ابن أخت عائشة روى عنه ابنه هشام بن عروة أنه أحرق يوم الحرة كتبه فكان يقول: لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون عندي مثل أولادي ومالي. كان أعلم الناس بحديث عائشة.

وأكثر الناس على أن سالما ليس بين الفقهاء السبعة، وقليل على أن فيهم أبا سلمة بن عبد الرحمن. ولقد نظمهم الشاعر في بيت واحد:

فخذهم: عبيد الله. عروة قاسم سعيد. أبو بكر. سليمان. خارجه

* * *

تعلم علماء المدينة، مباشرة أو بالواسطة على أمهات المؤمنين وأبي هريرة وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر. وسائر أركان المدرسة العليا للمدينة. فصيروا النصف الثاني من القرن الأول في المدينة صورة تريد لتقارب الأصل الذي كأنه النصف الأول. باتباع السنة في العلم والعمل. ولم يكتف الفقيه الأمير "عمر بن عبد العزيز" بالسبعة فأضاف إليهم آخرين واتخذ منهم مجلس الشورى له.

ومن الصحابة جماعة أكثروا الرواية عن الرسول (ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم) كما يقول أبو بكر بن حزم.

وحسبنا من المدرسة العليا في هذا المقام بعض الأسماء.

زيد بن ثابت: كان في الحادية عشرة حينما قدم النبي إلى المدينة. علمه الكتابة أسرى بدر الذين شرطت عليهم الفدية بالمال أو أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين. سلمه النبي لواء بني مالك بن النجار يوم تبوك لأنه أكثر أخذا للقرآن من حاملها عمارة بن حزم. والقرآن مقدم. وكان يكتب الوحي للرسول، وأمره النبي بتعلم السريانية إذ كانت ترد إليه الكتب بها. وكتب لأبي بكر وعمر واستخلفه عمر مرات على المدينة. وعثمان كذلك. كان أعلم الناس بالفرائض ومن أفكه الناس إذا خلا مع أهله، وأزمتهم إذا كان في القوم، وكان عثمانيا ينكر الطعن في عثمان ولم يشهد مع علي شيئا من حروبه، مع أنه يظهر فضل علي ويعظمه. وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر، وجمع المصحف في عهد عثمان. قال قبيصة بن ذؤيب: كان زيد بن ثابت مترئسا بالمدينة في القضاء والفتوى والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي في مقامه بالمدينة وبعد ذلك خمس سنين حتى ولي معاوية سنة ٤٠ فكان كذلك أيضا حتى توفي سنة ٤٥. وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء.

وكان إذا سأله رجل عن شئ قال: آلله كان هذا؟ فإن قال نعم أفتى وإلا سكت. وستؤول هذه الطريقة إلى مدرسة المدينة بعد.

عبد الله بن عمر: (٧٣) أسلم مع أبيه وهو لم يبلغ الحلم وشهد مؤتة مع جعفر بن أب يطالب وشهد اليرموك وفتح مصر وأفريقية، كان كثير التعهد لآثار الرسول ينزل منازله، يصلي في كل مكان صلى فيه، نزل عليه الصلاة والسلام تحت شجرة فصار ابن عمر يتعهدها حتى لا تيبس، وفيه تقول أم المؤمنين عائشة: ما رأيت أحدا ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر.

وقال مولاه نافع: "لو رأيت ابن عمر يتبع آثار رسول الله ﷺ لقلت إن هذا لمجنون".

وكان كثير الاحتياط لدينه، حتى ترك المنازعة في الخلافة ولم يقاتل في شئ من الفتن. ولم يشهد مع علي شيئا من حروبه إذ أشكلت عليه.

قال جابر بن عبد الله: ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه. والزهري يقول: لا يعدل برأي ابن عمر فإنه قام بعد رسول الله ستين سنة تقدم عليه وفود الناس.

وكان ربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا وإذا اشتد عجبه بشئ من ماله تقرب به إلى الله تعالى. فكان رقيقه يلزمون المسجد يصلون فإذا رآهم على هذه الحال الحسنة أعتقهم. فقال له قائل: يخدعونك. قال: من خدعنا بالله انخدعنا له.

وكان يقول: "البر شئ هين. وجه طلق وكلام لين".

وروى عنه كبار الصحابة وكبار التابعين وأكثرهم رواية عنه ابنه سالم ومولاه نافع أستاذ مالك بن أنس.

وقال عروة: "سئل ابن عمر عن شئ فقال لا علم لي به. فلما أدبر السائل قال عبد الله بن عمر: سئل ابن عمر عما لا علم له به فقال لا علم لي به. وسيكون ذلك منهاج مالك.

قال له عثمان: اذهب فاقض بين الناس قال: أو تعافيني يا أمير المؤمنين؟ قال وما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضي؟ قال إن أبي كان يقضي فإن أشكل عليه سأل رسول الله ﷺ فإن أشكل على رسول الله ﷺ سأل جبريل وأنا لا أجد من أسأله.

أبو هريرة: قدم على النبي مهاجرا سنة سبع للهجرة، ولازمه حتى لحق بربه، روى فأكثر الرواية عن النبي، وأكثر التابعيون الرواية عنه، ومنهم سعيد بن المسيب صهره – توفي سنة ٥٨.

عبد الله بن مسعود:كان من أحفظ الصحابة للقرآن وأشدهم إظهارا له يقول فيه أبو موسى الأشعري: "كنا حينا ما نرى ابن مسعود وأنه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ من كثرة دخولهما ولزومهما له". وكان في السفر صاحب فراش النبي ووضوئه. هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع النبي، وهو الذي احتز رأس أبي جهل يوم بدر،خرج غازيا إلى الشام ونقله عمر إلى الكوفة.

وكان صاحب بيت المال في الكولة لما وليها الوليد بن عقبة بن معيط لعثمان. وكان عقبة صاحب غنم يرعاها له عبد الله في الجاهلية. فاستقرض الوليد بن عقبة من بيت المال فأقرضه عبد الله – كان هذا جائزا – فلما حل الأجل، التوى الوليد،فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال وأقام في داره يعظ الناس ويفقههم.

وازدادت معارضته لعثمان عندما كلف عثمان زيد بن ثابت فجمع المصحف وأمر عثمان بحرق المصاحف الأخرى فرفض ابن مسعود حرق مصحفه. والرسول يقول: "خذوا القرآن من

أربعة: عبد الله، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ، وأبي بن كعب" ورجع إلى المدينة وأقام عامين أو ثلاثة معارضا حتى مات سنة ٣٢ وقيل اعتذر له عثمان قبل أن يموت.

وفي الكوفة أهل ابن مسعود ومنها انتشر علمه عن طريق مدرسة الاجتهاد التي تألقت في يدي أبي حنيفة.

عائشة أم المؤمنين: فارقت بيت أبيها إلى بيت النبي في نحو العاشرة فبلغت الذروة في كل شئ، وحدثت عن النبي الكثير. وكانت ذات رأي في الفقه والتاريخ وكلما يطلب إليها. وكأنما كانت رقيب العصر في الدفاع عن الاتباع. وكانت تجتهد، حاربت عليا، وغاضبت عثمان. ولامت معاوية، وماتت في خلافته (٥٨).

لم يكن عمر يعرف حديث: "ما أعطيتموهن من شئ فهو لكم صدقة" فذهب يسألها: أنشدك الله. أسمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما أعطيتموهن من شئ فهو صدقة؟" قالت: اللهم نعم. اللهم نعم. قال عمر: "أين كنت عنهذا. ألهاني الصفق في الأسواق"!! فقد كان يعمل ليعيش. وكان مشيخة أصحاب النبي يسألونها في الفرائض كما قال مسروق. أو كما قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها علما.

وهي أديبة بليغة – يفيض علمها الواسع على لسانها الفصيح.

قال الأحنف بن قيس: "سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء وهلم جرا إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه في فم عائشة".

وكان من زعماء العرب دعاه عمر إلى المدينة وأبقاه بها عاما ليرى هل يصلح لولاية العراق، فدخل المدينة في كامل أبهته، وعمر يطلي بعيرا من إبل الصدقة بالقطران. قال عمر هلم يا أحنف ساعدني في طلاء هذا البعير، قال أحد الحضور: يا أمير المؤمنين هلا كلفت عبدا من عبيد الصدقة ليكفيك ما أنت فيه؟ قال عمر: ومن أعبد مني ومن الأحنف؟ فخلع ثيابه وراح يطلي مع أمير المؤمنين.

إليك مثلا من بلاغة أم المؤمنين وعمقها الفقهي معا، سئلت عن خلق الرسول عليه السلام فقالت: "كان خلقه القرآن" وليس أوجز ولا أدل على وحدة جوهر الرسول والرسالة التي نزل بها القرآن من أن يكون "خلقه القرآن".

ومثلا في الأدب: كان عليه الصلاة والسلام يصلح نعله في يوم قائظ فتندي جبينه، وانحدر العرق على خده. وهي تلحظه من قريب وكأن بها وجدا عليه – فسألها مالك بهت؟ قالت: لو رآك أبو كبير الهلالي لعلم أنك أحق بقوله:

وإذا نظـــرت إلـــى أســـرة وجهـــه برقـت بـروق العـارض المتهلـل

فقبل النبي ما بين عينيها وقال: "سررتني يا عائشة سرك الله".

ملأت عائشة المدينة فضلا وعلما،وتعلم عليها كل من اتصل بها مثل القاسم ابن أخيها محمد وحفصة بنت أخيها عبد الرحمن، وعروة ابن أختها أسماء، وعمرة بنت عبد الرحمن، وقد ربيت في حجر عائشة، وعائشة بنت طلحة بنت أختها، وخيرة أم الحسن البصري، وزينب بنت أبي سلمة، ومرجانة والدة علقمة بن أبي علقمة.

ولقد مر بنا حديث القاسم وعمرة،وسنسمع غدا عمر بن عبد العزيز يطلب إلى قاضيه ابن حزم تدوين ما عند القاسم وعمرة ليؤول كل ذلك إلى مالك. فالطريق قاصدة بين أم المؤمنين وبين مالك.

أم سلمة أم المؤمنين: تزوجها الرسول بعد موت أبي سلمة بن عبد الأسد ولها ابن من أبي سلمة هو عمر، رباه النبي، وأحله عمر محلا عليا – وولاه على البحرين. روى عنها الكثير وإن كان أقل من الرواية عن عائشة.

وكان شيبة بن نصاح إمام القراءة في دهره مولى لها،وهو أستاذ نافع صاحب القراءة الشهيرة،وخيرة أم الحسن البصري مولاتها،ومن هذا النبع العظيم صار الحسن البصري إماما في الفكر، والفقه، والدين، للمسلمين.

وقد لحقت أم سلمة بعائشة بعد عام سنة ٥٩، فكانت آخر من بقي على الأرض من زوجات الرسول ﷺ.

* * *

جمع الإسلام العرب على أرفع المبادئ فصيرهم أعظم الأمم في سنوات وجرى التيار الطهور من جيل الذين صنعوا الصنيع مع الرسول، أو بصرت به أعينهم، إلى جيل التابعين الذين شاركوهم وجروا على آثارهم، فجيل تابعي التابعين في خاتمة القرن الأول وأوائل القرن الثاني.

وكن الصحابة مصدرا للآثار التي يتبعها المسلمون منقولة عن الرسول، أو عن فهمهم لحقائق فكره وعمله،وانبثقت من أشخاصهم وأعمالهم الحقائق دينية وعلمية معا. بل كانوا بمثلهم العليا وشجاعة النفس والفكر، والتواعد إلى الجنة، عدة النصر العسكري.

أمر أبو بكر خالد بن الوليد في العراق أن يخف لنجدة جيوش الشام بنصف جيش العراق، على أن يقود النصف الباقي المثنى بن حارثة، وأصر خالد على أن يصطحب كل الصحابة الذين كانوا في الجيش، وأبى المثنى إلا تنفيذ أمر أبي بكر بقسمة قوى الجيش مناصفة وباستصحاب نصف الصحابة قائلا: "وكيف تعريني منهم والله ما أرجو النصر إلا بهم" فأرضاه خالد، وأعاضه من الصحابة أبطالا مجربين، وبالصحابة انعقد لواء النصر في اليرموك، وكان يوم اليرموك في فاتحة القرن إيذانا بفتح الأندلس غربا، في خاتمته. وبهم كان يوم القادسية في فاتحة القرن إيذانا ببلوغ المسلمين حدود الصين شرقا، قبل منتهاه، فكل مأثرة تبعها الناس من أيام الحقبة العظيمة ورجالها أدت، وسوف تؤدي، إلى التقدم الحضاري الذي ينعه الإسلام. فالاتباع في ذاته فضيلة والدفاع عنه حرص على فضيلة.

ويزداد الاتباع والتزامه وجوبا في مدينة الرسول، لأنه اتباع لأمور وقعت فيها، ولها بها قصب السبق،وعليها واجب إذاعتها. وفي التزام منهج الرسول وصحبه منجاة من المجازفة، بالتزام العلامات المميزة. وأمان من الفرقة والاختلاف، فذلك هو الأمر الأول، من جانبه خرج عن الجادة وتعرض للضلال. وكما يقول مالك: السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.

والطاعة والاتباع صنوان وهما الدرس الأول في بيعة المسلمين لرسولهم وللخلفاء الراشدين وفي إنفاذ أمره وأوامرهم(٨).

والعرب من ناحية أخرى أمة من الحفظة، لا تكتب إلا ما ندر، استودعت صدورها الكتاب والسنة والآثار، في دقة مقطوعة القرين. ومن ثم عظم شأن الاتباع ووجبت صيانته حتى لا تتناوشه آثار أخرى لحضارات شتى، متباينة العقائد والشرائع. دخل بها أصحابها في دين جديد، مقوم لاعوجاجهم، وحق الخوف عليهم من أنفسهم إذا صلحت نواياهم، ولزم الحذر منهم إذا فسدت حتى لا يفسدوا الناس بابتداع غير مأمون العواقب. وكذلك أقبل أصحاب الرأي على الاجتهاد إقبال الحذر، معتمدين على روح المدينة أي الخلاصة الفكرية والروحية التي يتداولها فقهاؤها، صاعدين جيلا بعد جيل إلى الرسول في عباداتهم ومعاملاتهم. وأحق العلماء بالحرص والحذر من وعت صدورهم كنوز السنة من أوعيتها الأصيلة في صدور الصحابة وتابعيهم وقد كانوا كثرة بالمدينة.

---

(٨) كانت إمرة الجيش لعمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل إذ كانت أمه من أهل تلك البقاع ومن السهل عليه أن يتألفهم فلما بعث يستمد النبي أمده بأبي عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين وفيهم أبو بكر وعمر وقال عليه السلام لأبي عبيدة: لا تختلفا.

فلما وصل المدد قال له عمرو إنما جئت مددا لي – فأنا على قيادة الجيش، وكان أبو عبيدة أمين الأمة، كما سماه الرسول، كان من السابقين إلى الإسلام وإلى الهجرة فله الصدارة، لكنه كان لينا، هينا عليه أمر الدنيا، فأجاب عمرا: لقد قال رسول الله لا تختلفا – وإنك إن عصيتني أطعتك. فصلى عمرو بالناس وهو الحديث العهد بالإسلام وفي النسا أبو عبيدة، وأبو بكر وعمر.. وعلى هذا الأساس وبمثل هذه الدروس أطاع الصحابة الخلفاء وإن جادلوهم.

فتلك كانت وظيفة حلقة مالك بن أنس "عالم المدينة"يعلن مسئوليته ومسئولية حلقته فيقول:

"انصرف رسول الله ﷺ من غزوة كذا في كذا ألفا من الصحابة مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وباقيهم تفرق بالبلدان، فأيهم أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم؟ من مات عندهم النبي ﷺ وأصحابه الذين ذكرت أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي ﷺ؟" أو يقول: "إن الرسول ﷺ قفل من غزوة حنين في اثنى عشر ألفا مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وتفرق ألفان في سائر البلدان".

وإذا كان هذا بيان مالك لعلماء البلدان الأخرى فهو أول الملتزمين بما في حجته من تبعات نحو الله والناس، يفرضها عليه وجوده في المكان الأفضل: مدينة الرسول ﷺ.

* * *

ولقد أنجح مالكا في الدفاع عن السنة ظرف الزمان وظرف المكان وأمر ثالث، كأنه بعد ثالث: نعني به أنفس الناس.

فأما ظرف الزمان فأتاح له أمرين لم يتاحا لمثله حتى لمحمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وكان أنجب تلاميذه، وذروة المنهج العلمي في مدرسته، أو لأحمد بن حنبل،وكان تلميذا للشافعي ومالك، وإماما في الفقه وفي العمل، مثلهما.

وأول الأمرين ما رزق الله مالكا من تطاول عمره على امتداد القرن الثاني للهجرة، قرن العباقرة. مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل والخوارزمي والكندي وجابر بن حيان، منه ثلاثون عاما، بتمامها، تفرد فيها مالك بإمامة الأمة. ومنه سبعون عاما، أو تقل شيئا، تفرد فيها بزعامة الفقه بالمدينة والأصقاع كلها تتبعها، إلا قلة في بقعة أو أخرى، فللمدينة زعامة السنن في كل بلاد الإسلام.

يقول أبو الحسن الدارقطني: "لا أعلم رجلا تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك وذلك أنه روى عنه رجلان حديثا واحدا بين وفاتيهما نحو مائة وثلاثين سنة. محمد بن شهاب الزهري مات سنة ١٢٤ وأبو حذافة السهمي توفي سنة ٢٥٠ رويا عنه حديث الفريعة بنت مالك في سكنى المعتدة" ويقول جعفر الغرياني: "لا أعلم أحدا روى عنه الأئمة الجلة ممن مات قبله بدهر طويل إلا مالكا. فيحيى بن سعيد مات قبله بخمس وثلاثين سنة وابن جريج بثلاثين والأوزاعي

بعشرين والثوري بثمان عشرة، وشعبة بسبع عشرة" وأضاف غيره: وأبو حنيفة بثلاثين وهشام بأكثر من ذلك.

أما جمهور الأمة فيقول مقال بقية بن الوليد (١٩٧): "ما بقى على ظهرها – يعني الأرض – أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك".

والأمر الثاني: أن السنين التي راحت تتزاحف نحو التسعين من عمر مالك كانت امتدادا لقرن سابق. كله السنة أو تطبيقها الدقيق. فمالك لم يجئ على فترة أو انقطاع من العلماء. وإنما ركب الموجة وكأنه يحرس أمواهها. فتسلم النجاح العظيم ممن سبقوه ليسلمه إلى من بعده. ولم يكن قد مضى عشر سنوات على توقف ينبوع زكي من ينابيع التيار المقدس، عمر بن عبد العزيز، وقد توج عمله وعلمه علم الفقهاء السبعة، وعملهم، إذ اثبت نجاح جهودهم وتأثيرهم في القرن الأول الذي نقلوا آثاره إلى الوجود كله.

وأما ظرف المكان فموافق تماما لظرف الزمان. أن كان هو المكان الذي صنع فيه الصنيع العظيم نفسه، دون أن تطرأ عليه من طوارئ الحدثان إلا نوادر في العدد والقيمة والأثر، فكان خليقا أن ينقل الشئ نفسه من الرجال أنفسهم ومن أبنائهم ومواليهم: من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت، وأبي هريرة وآل مسعود من أبنائهم الفعليين، أو الفكريين كمدرسة عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، أو من الأصهار والآل ممن ذكرنا ومن لم نذكر. وحسبنا القليل الذي سلف دلالة على أن المدينة وأبناءها العظماء كانت كل سنده، وما أعظمه من سند، وأن عرفها وفقهها كان كل فقهه، محققا للمصالح الشرعية للأمة، منقولا فيها بطريق التواتر العلمي والعملي.. فلم تذ١هب سدى الأصوات التي انطلقت في آفاق الوجود من فم الرسول الكريم، وأفواه أصحابه في العهد العظيم، بل بقيت موجاتها في الهواء، تشحن الأجواء، وتملأ الدنيا طنينا في انتظار من يتلقاها من العلماء. وكان التقاط هذه الفيوض الفكرية فرصة تدخرها السماء لمالك، فتناهى إليه كل موجات المدينة، ليحدث بسلسلة الذهب (مالك عن نافع عن ابن عمر) أو بغيرها مثل: مالك عن الزهري عن سالم عن ابن عمر، أو عن أبي الزناد أو عن عائشة. وعلى هذا الطراز الرفيع من المصادر تداولت المدينة السنة متواترة عن أجيالها المتتابعة، وإنما هي تتداول تاريخها الجيد – وتقلب صفحاته اليبض، على وجه الاستمرار.

لقد شهد مالك في حياته مؤذنا ظل يؤذن ثمانين عاما بتمامها في مسجد الرسول ذاته.

وهكذا صاحب الزمان والمكان – ما يسمى بالبعد الثالث في أنفس الناس وهو الصلات الخاصة، أن كان أهل المدينة أهل الرسول وأصحابه المهاجرين معه وأنصاره ومواليهم والمجاورين لمسجده عليه السلام وقبره، والعائذين بدار الهجرة، الذين دفعوا، ودفع آباؤهم، الثمن الغالي من أجل المدينة من عهد علي والحسين، إلى يوم الحرة، وأيام الحجاج وأيام هشام بن إسماعيل إلى أيام زيد بن علي وأبي حمزة الخارجي، في دولة بني أمية، إلى أيام محمد بن الحسن وأخيه إبراهيم وغيرهم، في دولة بني العباس على مدار قرن كامل على الأقل. لا تكاد تمضي سنوات حتى تذكرهم مذبحة عام بمذبحة عام، وهم لا يستسلمون ولا يتزحزحون عن مراكزهم التي تبؤها بعملهم الصالح وعمل آبائهم، وأول مراكزهم أنهم.. أهل المدينة التي كانت إليها الهجرة، وبها اعتز الإسلام بعد اضطهاده، ومنها تنتشر سنن الرسول... على أيديهم.

وفي مدينتهم هذه يقول النبي الكريم: "والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" والصلاة في مسجدها خير من ألف صلاة إلا صلاة المسجد الحرام. دعا النبي لها بمثل ما دعا إبراهيم لمكة، وقال إنها تنفي خبثها وينصع طيبها، وقال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها".

وقال: "من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني شفيع لمن مات بها".